القصيدة القصيرة جدّاً

لمحٌ من تجربة ورأي في المصطلح

نُشر في ملف قوافل الصادر عن نادي الرياض الأدبي

أشعر أن زماننا هذا أميل إلى التكثيف والإيجاز، لأن الشعر تنحّى عن مقامه الأول وضويق بأجناس أخرى، وغُطّي على أذواق الناس بالعامية والثقافة المختلسة والغبار الفضائي؛ فصعُب على أكثرهم تلقّي الجِدّ، والشعر الفصيح جدٌّ أيُّ جِد! فكان لا بدّ لهذا الشعر من أن ينحاز إلى ما يستحوذ به على أذهان المتلقين ويعيدهم إلى ساحه الكريمة النقية.

ومن سُبُل الاستحواذ أن يجاري الشعرُ عصرَه فيتطبّع بسماته؛ وأبرزُها الإيجاز واللمح والإشارة التي تغني عن قصائد طوال ذوات عدد.

ولكن هل للقصة القصيرة حدّ؟ ما مفهوم القِصَر؟ أرجع إلى حدّ القصيدة عند القدماء وكثير من المتأخرين فأجدها محكومة بسبعة أبيات- في الأغلب- وما دونها إما بيت مفرَد أو نتفة في بيتين، أو قطعة لما لم يبلغ السبعة. وهذه القسمة هي عندي أليق وأدقّ، فالمصطلح الذي يُطرَح اليوم (القصيدة القصيرة جدًّا) غير دقيق، فهو أولا طويل، والمصطلحات تنحو إلى الإيجاز، وهو يقتضي وجود (قصيدة قصيرة) أي غير القصيرة جدًّا، فما حدّ كلٍّ منهما؟ ويقتضي قصيدةً طويلةً، وربما اقتضى القصيدةَ الطويلةَ جدًّا، فالإشكال في كل هذه المصطلحات واضح، وبخاصة في المصطلحين الأولين (القصيدة القصيرة جدًّا) و(القصيدة القصيرة) إذْ لا يبدو بينهما فارق.

ثم هل نُدخل في القصيدة القصيرة جدًّا البيتَ الواحد (خليفة التلّيسي فعل هذا)؟ أليس الأدقّ وصفه بالمفرَد؟ أعترف بأني تأثرت بالتليسي في بعض نتاجي فوسمت بعض الأبيات المفردة بالقصائد القصار، ولكني مخبِتٌ متردّد؛ لأني أجده غير علمي ولا دقيق بعد طول تأمّل.

قد يصدقُ وصف القصيدة القصيرة على شعر التفعيلة الموجز – والإيجاز أيضًا في حاجة إلى حدٍّ– أكثرَ من صدقه في التعبير عن التناظري الذي قد يناسب المقطوعةَ أو القطعةَ منه (أي ما لم يبلغ سبعة أبيات) أن توسم بالقصيدة القصيرة.

أما تجربتي في إنشاء القصائد القصار (واستعمالي للمصطلح متذبذبٌ مؤقّت حتى أستقرّ على رأي وجيه) فهي ذات شقّين: الأول ما جاء في أبيات مفرَدة أو قطع موجزة، وأكثره على وحدة التفعيلة، مثل:

لا تعلن البكاءَ يا..

فنحنُ مثلُ النارِ لا نموتْ

إن انطفأنا هاهنا

فثَمَّ ألفُ شعلةٍ تحضنُها البيوتْ

ومثلها:

الذين أداروا ظهورَهمُ للظلام..

توارَوْا مع الشمسِ..

لكنّهم في غدٍ معها يشرقونْ

والشقُّ الآخر: ما كان في الأصل جزءًا من قصائد طوال (والطول هنا نسبيّ) ولكنّي بعد نظر وتأمّل ألغيت أغلب الأبيات فبقي منها ما يصدق عليه أنه بيت مفرَد أو مقطوعة، مثل:

إن من يبتني بقمّة طودٍ ليس يخشى تدحرجَ الأحجارِ

فهذا البيت هو في الأصل ختام قصيدة في نحو واحد وعشرين بيتًا، ولكنّي ألغيتها كاملة ولم أُبقِ غيرَه. ومثله:

أراد نطاسيٌّ ليأخذ من دمي فلمّا أمرَّ المشرطَ انبثقَ الشعرُ

و:

لا تذرني أكابد الشوقَ وحدي إنني أعشقُ الصعابَ اشتراكا

ومما جاء نُتفة (أي في بيتين):

أنت المحاصَر بالظلا ...م وبي وشرُّهما أنا

الليلُ جاءكَ من هنا..كَ وقد أتيتُك من هنا

وقد حرَصتُ على عنونة الأبيات المفردة (وهذا اسمها الجامع في ديواني الأول خاتمة البروق) وكذلك النتَف والمقطوعات لأني أرى في العنونة شهادة ميلاد لها؛ فهي أشبه بالاسم الذي يمنحها الخصوصية ويعطيها الحقَّ في (الحياة الكريمة) في إطار تلقٍّ تقليدي لا يرى الشعر إلا ما كان طويلاً مهلهلا.

وتبقى الإشارة إلى إشكال أخير: هل نعدّ من القصيدة القصيرة ما كان في الأصل جزءًا من قصيدة طويلة؟ أو نجعله خاصًّا بما أنشأه الشاعر ولم يُطِلْ فيه ابتداءً؟ وهب أننا أخذنا بالرأي الثاني، فهل المعوَّل على ما قاله الشاعر ثم لم يرضه؟ أو هو على ما وُوجِه به المتلقّي؟ إن الاختيار الثاني هو الذي تحتّمه طبيعة العمل الإبداعي وعلاقة المنشئ بالمتلقّي.

سيظلّ مصطلح (القصيدة القصيرة جدًّا) موضعَ نظرٍ وتجاذب، ولا أظنّه يصمُد تجاه ما أسلفتُ حوله من إشكالات. وسنعود إلى قسمة النقاد القدماء التي كانت نتاج رؤى ناضجة.